دروس كومونة باريس

ستظل اوجه التشابه بين تجربة كومونة باريس والظروف التي احاطت بولادتها ونضالها وبين تجربة المقاومة الفلسطينية في السنوات الثلاث الماضية ، كثيرة ومثيرة للتأمل . وكانت « الهدف » قد نشرت قبل فترة ملحقا خاصا عن كومونة باريس مأخوذا من رسوم سجلها آنذاك رسامون معاصرون ، وطالب الكثير من الرفاق بالتوسع في بحث هذه التجربة لان دروسها مهمة جدا في أوضاعنا الراهنة ... ونقدم فيما يلي بحثا مهما في هذا المجال .
« الهدف »

تؤكد كافة كتابات الماركسيين المحدثين (*) وجهات نظر ماركس وانجلس القائلة بان من الضروري عدم النظر الى الكومونة كانتفاضة « صدفية » بحتة ، ناجمة عن قيام الجيش الالماني بحصار باريس ، وعن احتقاد الهزيمة ، كما تؤكد كافة الابحاث الدقيقة العلمية خطأ هذا التحليل الرجعي الرامي الى حرمان ثورة ١٨ مارس ١٨٧١ من بعدها التاريخي الشامل كمحاولة لاقامة سلطة الطبقة العمالية .

الحرب الفرنسية الالمانية وخيانة البورجوازية الفرنسية :

لقد كانت الحرب بالنسبة للامبراطورية الفرنسية حرب الاسرة المالكة ، ومع هذا فقد كانت عقلية البورجوازية الصغيرة مشبعة بروح شوفينية كامنة ، بالاضافة الى الهلع من اهوال الهزيمة . اما البروليتاريا فقد اخذت مجموعاتها المنظمة موقفا معاديا للحرب . وجاءت هزيمة ٢ سبتمبر (ايلول) والاستسلام المخزي في سيدان ، فسددا ضربة نهائية الى نظام الامبراطور الثانية المتهالك ، وانتفضت الجماهير الشعبية في باريس ، واجبرت المجلس التشريعي على اعلان سقوط الملكية ، وكان عمل الجماهير في هذا الصدد فعالا جدا . ولكن قيادة الجماهير كانت بيد افراد متزلفين لا بيد حزب عمالي ، وهذا ما جعل النصر ينضج من بين ايدي المنتصرين – تماما كما وقع في يوليو ١٨٣٠ ، وفبراير ١٨٤٨ – وانسولت على زمام السلطة حكومة بورجوازية .

ومن المعروف ان ماركس والحكومة البروسية اعلنا من قبل ، وفي اكثر من مناسبة ، ان الحرب لا تستهدف الشعب الفرنسي ولكنها موجهة ضد الامبراطورية . بيد انهما لم يلبثا ان كشفا عن اهدافهما التوسعية . وكان من جراء ذلك ان اعتقد العمال الفرنسيون بان الحرب قد بدلت طبيعتها ، وغدت حربا عادلة ، وان من واجبهم ان يعملوا على دعمها والمشاركة بها .

واعتقد العمال الباريسيون ان الحكومة المؤقتة البورجوازية ستعمل وفقا لتصريحاتها ، وستكون « حكومة دفاع وطني ، قبل اي شيء آخر » . وكان هذا افتراضا موفقا في الخطأ لان بورجوازية عام ١٨٧٠ « الجيدة » كانت تعيش حالة خوف مجنون من الشعب الباريسي المسلح – اذ كان عدد افراد الحرس الوطني ٢٨٤ الف رجل – ولذا فقد كانت عاجزة عن التصرف بشكل مماثل لتصرف بورجوازية القرن الثامن عشر التي كانت تعتبر نفسها ممثلة للقضية الوطنية كلها .

وكانت حكومة « الدفاع الوطني » حكومة طبقية بكل معنى الكلمة ، فقد كانت تضم ممثلين عن الاوساط المالية ، ومن كبار الملاكين العقاريين ، ومن الجمهوريين المعتدلين ، ومن الاورليانيين ، ومن البونابرتيين ، ومن الرجعيين المعادين للعمال ، وتستند الى شرطة النظام الامبراطوري ، وتخشى فكرة الثورة الاشتراكية ، وكان جبنها ورغبتها في اخماد الحقائق بدفعانها الى البحث عن افضل الاساليب لاستسلامها امام بسمارك ، وكان الاعتقاد بامكانية ثمن حرب وطنية في مثل هذه الظروف وهما خياليا .

ولاحظ ماركس الخدعة ، فشرع في نداء الاممية الثاني بتاريخ ٩ سبتمبر متطلبا الموقف الحقيقية ففال : « على العمال الفرنسيين ان لا يسيروا على هدى ذكريات عام ١٧٩٢ .. فليس من واجبهم اعادة الماضي ، بل بناء المستقبل » وطالبهم بالاستفادة من حريات النظام الجديد بغية اعادة تنظيمهم ، وكان ماركس يخشى نقص التنظيم والاعداد النظري لدى العاملين في باريس . وكان الشعب قد لاحظ منذ مطلع يناير ١٨٧١ بأن الدفاع الوطني يبين ايدي الخونة . وجاء « الاعلان الاحمر » الشهير الذي اصدرته اللجنة المركزية الجمهورية لعشرين مقاطعة ليطلق النداء التالي : « نريد مكانا للشعب ! نريد مكانا للكومونة ! » ، وكلنا نعرف ان الحكومة الفرنسية المؤقتة وقعت في نهاية شهر يناير صك الاستسلام .

وظهر الخلاف واضحا بين اناتية البورجوازية الكبيرة بتجريد الشعب من سلاحه ، والمستعدة بالتالي لايقاف الحرب باي ثمن – حتى ولو ادى ذلك الى تقطيع اوصال البلاد – وتضحية الجماهير الشعبية – البروليتاريا والبورجوازية الصغيرة – المستعدة للبذل بلا حدود بغية انقاذ الوطن . وتفجر التناقض امام الجميع . وبدا من الواضح ان العناصر الاجتماعية التي كانت تتربع في السلطة حتى تلك اللحظة ، لم تعد قادرة على ممارسة دورها التاريخي القديم امام الامة ، وان البلاد بحاجة ماسة لتبديل الطبقة الحاكمة .

وهكذا كانت الحركة التي ادت فيما بعد الى ثورة ١٨ مارس حركة تحمل الكثير من الصفات الوطنية والقومية ، ولكنها لم تكن تتسم بالعدوانية او بالشوفينية الجامدة ، كما يحاول كثير من المؤرخين الرجعيين تصويرها اليوم ، بل كانت قومية بمعنى ان الطبقة الصاعدة ، الطبقة العمالية المتحالفة مع البورجوازية المدنية الصغيرة كانت تؤكد بان الساعة قد ازفت ، وان عليها ان تحسك بيديها زمام مصير الامة التي خانتها البورجوازية الكبيرة . وبدا الاستقلال الوطني مترابطا مع التحرر الاجتماعي بشكل لا يقبل الانفصام .

يوم ١٨ مارس :

ولكن النظام الجمهوري كله غدا معرضا للخطر عندما ظهر ان الملكيين يشكلون غالبية اعضاء المجلس الوطني المنتخب في ٨ فبراير .

وجاء عامل ثمر آخر من التدابير الاجتماعية التعسفية التي اصدرها حكام فرساي مثل : الغاء رواتب رجال الحرس الوطني في وقت اربفع فيه عدد المعدمين العاطلين عن العمل في باريس وحدها الى ٥٠,٠٠٠ شخص . والغاء القانون الخاص بتاخير دفع اجور السكن الذي يم افراده منذ حصار العاصمة ، والغاء القانون الخاص بتاخير دفع الديون التجارية ، الامر الذي عرض الاف صغار التجار الباريسيين للخراب فورا .

وعارض هذه السياسة الاولوية ، المعادية للجمهورية ، المعادية لصالح المجتمع ، فوران هما : الفصائل الباريسية للامة ، والحرس الوطني الذي احتفظ بسلاحه . لان بسمارك لم يجرؤ على اهانة سكان باريس الى درجة تجريدهم من اسلحتهم ، وانتخبت كتائب الحرس الوطني لجنة مركزية كانت الممثل الحقيقي الوحيد لسكان باريس .

ولكن نيير وحكام فرساي لم يلبثوا ان قاموا بمحاولتهم الفاشلة لتنفيذ ما احجم عنه بسمارك . ففي ١٨ مارس ، حاول هؤلاء الحكام الاستيلاء على ثكنات مدفعية الحرس الوطني بالقوة . ولكن صمود القوات الشعبية ، وتاخي القوات النظامية مع الحرس الوطني اديا الى احباط العملية الاستفزازية ، وخرج الشعب من الحادث منتصرا .

وهكذا كان يوم ١٨ مارس ١٨٧١ يوما هاما في تاريخ فرنسا . وجاء احتلال الحرس الوطني لباريس ، واقامة اللجنة المركزية في مبنى المحافظة ، ورفع العلم الاحمر ، وتصريح اللجنة المركزية التي اعتبرت نفسها « الممثل الحديد للجمهورية » والبدء بالتصرف كحكومة فعليه واتخاذ التدابير الهامة مثل العفو عن السجناء السياسيين ، ومنع طرد المستاجرين ، وتاجيل دفع الديون لصالح صغار اصحاب الحوانيت ، الخ ، وهي كلها تدابير ذات صبغة سياسية .

وتصرفت اللجنة المركزية بصورة عامة على اساس انها حكومة الطبقة العمالية المتحالفة مع البورجوازية الصغيرة ، وتجم عن ذلك تبدل للطبقة الاجتماعية الحاكمة ، واستولى العمال على مقاليد الامور . وفي اوقت نفسه بدا ارتكاب احرام كيان نتك فرنسا الموجود في باريس ، فلقد تركت الحكومة الثورية لهذا البنك الحرية التامة في تمويل نيير وحكام فرساي ، اما الخطيئة الثانية فهي السلبية العسكرية ، في لحظة كانت فرساي بها مجردة من كل قدرة فعلية على الدفاع . وكانت الخطيئة الثالثة النمسك الذي لا معنى له بالشرعية الشكلية ، ولقد ادت هذه الخطيئة الى اضاعة وقت ثمين في الاعداد لانتخابات عامة تجري في ٢٦ مارس بغية انشاء « مجلس كومونة باريس » او مجلس الكومونة .

ويرجع سبب كل هذه الاخطاء الى تاثير البورجوازيين الذين كانوا يسيطرون على اللجنة المركزية ويفرضون افكارهم التوفيقية .

اقامة الكومونة :

عندما استولت الكومونة على السلطة ظهر ان الوحدة الفكرية بين اعضائها مفقودة ولم تكن الطبقة العمالية الباريسية تعمل تحت قيادة حزب ثوري . وكان البلانكيون ، واليعاقبة ، والرادبكاليون يشكلون غالبية الكومونة ، وكانوا جميعا ضحايا العقد الثوري الذي كشفه ماركس وهاجمه ، اذ كانوا يعتقدون بان بوسعهم ، بل من واجبهم ، ان يكرروا في عام ١٨٧١ ما وقع في عام ١٧٩٢ . وبالاضافة الى ذلك فقد كان بينهم كثير من المثقفين الجدين ، ولكنهم غير مجربين ، فردين ، رومانيين ويمثلون التيار الثائر اكثر مما يمثلون الرجل الثوري الحازم الواعي . ولقد قال ماركس في رسالة الى فرانكل وفارلين : « بدو ان الكومونة تضيع كثيرا من الوقت في المعارك الصغيرة ، والمناحات الشخصية ، وتظهر بوضوح ان فيها ميول اخرى بالاضافة الى الميول العمالية ... »

وكانت اغلبية الكومونة فقط تضم ممثلين عماليين ، وكان بعض هؤلاء العمال خاضعين لتاثير الافكار البرودونية : كالميل الى الامور الفوية ، وكراهية الانضباط والتنظيم . ولكن اشتراكيتهم بجرؤ على اهانة سكان باريس الى درجة تجريدهم من اسلحتهم ، وانتخبت كتائب الحرس الوطني لجنة مركزية كانت الممثل الحقيقي الوحيد لسكان باريس .

ولكن نيير وحكام فرساي لم يلبثوا ان قاموا بمحاولتهم الفاشلة لتنفيذ ما احجم عنه بسمارك . ففي ١٨ مارس ، حاول هؤلاء الحكام الاستيلاء على ثكنات مدفعية الحرس الوطني بالقوة . ولكن صمود القوات الشعبية ، وتاخي القوات النظامية مع الحرس الوطني اديا الى احباط العملية الاستفزازية ، وخرج الشعب من الحادث منتصرا .

وهكذا كان يوم ١٨ مارس ١٨٧١ يوما هاما في تاريخ فرنسا . وجاء احتلال الحرس الوطني لباريس ، واقامة اللجنة المركزية في مبنى المحافظة ، ورفع العلم الاحمر ، وتصريح اللجنة المركزية التي اعتبرت نفسها « الممثل الحديد للجمهورية » والبدء بالتصرف كحكومة فعليه واتخاذ التدابير الهامة مثل العفو عن السجناء السياسيين ، ومنع طرد المستاجرين ، وتاجيل دفع الديون لصالح صغار اصحاب الحوانيت ، الخ ، وهي كلها تدابير ذات صبغة سياسية .

وتصرفت اللجنة المركزية بصورة عامة على اساس انها حكومة الطبقة العمالية المتحالفة مع البورجوازية الصغيرة ، ونجم عن ذلك تبدل للطبقة الاجتماعية الحاكمة ، واستولى العمال على مقاليد الامور . وفي اوقت نفسه بدا ارتكاب احرام كيان نتك فرنسا الموجود في باريس ، فلقد تركت الحكومة الثورية لهذا البنك الحرية التامة في تمويل نيير وحكام فرساي ، اما الخطيئة الثانية فهي السلبية العسكرية ، في لحظة كانت فرساي بها مجردة من كل قدرة فعلية على الدفاع . وكانت الخطيئة الثالثة التمسك الذي لا معنى له بالشرعية الشكلية ، ولقد ادت

البرتقال ... الدامي !
هذا الاعلان الذي دفعه الاسرائيليون مؤخرا في العاصمة البلجيكية عنوانه « برتقال يافا » ، جاء من سجل عليه « من يافا ، جرى طرد اكثر من ٤٠ الف فلسطيني عام ١٩٤٨ » ! ان هذا الاحتجاج الصارخ ، الحي ، هو رد من اصدقاء فلسطين في بروكسل ...

هذه الخطيئة الى اضاعة وقت ثمين في الاعداد لانتخابات عامة تجري في ٢٦ مارس بغية انشاء « مجلس كومونة باريس » او مجلس الكومونة .

ويرجع سبب كل هذه الاخطاء الى تاثير البورجوازيين الذين كانوا يسيطرون على اللجنة المركزية ويفرضون افكارهم التوفيقية .

اقامة الكومونة :

عندما استولت الكومونة على السلطة ظهر ان الوحدة الفكرية بين اعضائها مفقودة ولم تكن الطبقة العمالية الباريسية تعمل تحت قيادة حزب ثوري . وكان البلانكيون ، واليعاقبة ، والرادبكاليون يشكلون غالبية الكومونة ، وكانوا جميعا ضحايا العقد الثوري الذي كشفه ماركس وهاجمه ، اذ كانوا يعتقدون بان بوسعهم ، بل من واجبهم ، ان يكرروا في عام ١٨٧١ ما وقع في عام ١٧٩٢ . وبالاضافة الى ذلك فقد كان بينهم كثير من المثقفين الجدين ، ولكنهم غير

الاهلية ، كانا السبب في انهم « تركوا الفرصة الملائمة تمر » دون الافادة منها .

وما ابث بسمارك ان فهم الخدعة التي يقدمها له حكام فرساي ، واستوعب المعنى الاجتماعي الثوري للكومونة ورأى فيها مثالا خطيرا يمكن للبروليتاريا الالمانية ان تسير على هديه ، فقرر التخلي عن الحياد الظاهري الذي اعلنه في بداية الامر ، ومساعدة نيير واتباعه بشكل قوي مكشوف . عندها بدات حكومة فرساي المفاوضات وكانت – حسب تعبير انجلس – « تتفرع امام الحكومة البروسية ، وتتسول اعادة اسرى سيدان وميتز من الجنود الفرنسيين الى بلادهم ، بغية استخدامهم في استعادة باريس » .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان المحافظات اعطت البورجوازية الفرصة لسحق الكومونة ، وان حكومة فرساي استطاعت جمع كل قواتها ضد العاصمة ، دون ان يعيقها في ذلك اي شيء .

ولا شك في ان الكومونة وجهت عددا كبيرا من النداءات الى الكادحين في الارياف وفي المحافظات ، ولم تكن هذه النداءات خاطئة او ضعيفة ، ولكن تنظيم الاتصالات كان ضعيفا ، كما كان عدد مبعوثي الكومونة وفاعليتهم محدودين ، والحقيقة ان فكرة ضرورة التحالف بين الطبقة العمالية والجماهير الفلاحية الكادحة لم تكن واضحة كل الوضوح في اذهان الثوريين الباريسيين .

دروس الكومونة :

تعيد اخر التحليلات كافة اخطاء الكومونة الى غياب حزب الطبقة العمالية السياسي ، المستند الى فكرة واضحة متماسكة عن الصراع الطبقي ، والممتلك لنظرية علمية .

وتضايق العمال الثوريون وسط سلبية وعدم وضوح التقاليد البرودونية والميول « الجمهورية » التي كان يحملها البورجوازيون الصغار الديمقراطيون ، والبورجوازيون البلانكيون ، واحسوا دون شك بحاجة غامضة لتنظيم سياسي يخصهم وحدهم . الا ان هذا التنظيم لم يكن قد خلق بعد . وظهرت البروليتاريا في عام ١٨٧١ كطبقة ناضجة مؤهلة للاستيلاء على السلطة في ظروف ملائمة ، ولكنها غير ناضجة بما فيه الكفاية بغية تنظيم السلطة وتدعيمها وحمايتها والحفاظ عليها بعد الوصول اليها . اذ لم تكن البروليتاريا واعية كل الوعي . وظهر ذلك بوضوح من خلال الاضطراب الايديولوجي الذي ادى الى تعدد المجموعات والفئات والاتجاهة داخل مجلس الكومونة ، وتبديل المواقع بصورة مستمرة ، فاذا استثنينا فرانكل ، وفارلين ، وسيرايه وجدنا ان عدد الكومونيين المتاثرين بنور الماركسية كان جد محدود .

وكان هذا هو السبب الذي دفع مؤتمر الاممية الاولى المنعقد في لندن (١٧ – ٢٣ سبتمبر ١٨٧١) والذي درس المسائل الاساسية انطلاقا من تجربة الكومونة ، الى اصدار قرار خاص بالحزب وافق عليه كل من ماركس ، وانجلس ، والكومونيين دوان فايان . ويقول هذا القرار بانه امام السيطرة البورجوازية « لا تستطيع البروليتاريا ان تعمل كطبقة ، الا اذا نظمت نفسها داخل حزب سياسي ممتاز ، مخالف لكافة الاحزاب القديمة التي شكلتها الطبقات المالكة » .

ومن المعروف ان الباكونيين الذين كانت ايديولوجيتهم الفوضوية سببا من اسباب الاخفاق الفادحة المرتكبة في باريس ولبون ، عارضوا هذه المفاهيم الماركسية ، مع انها كانت الوسيلة الوحيدة لانتشال الحركة البروليتارية من مازقها. واكد مؤتمر الاممية الاولى في لاهاي (١٨٧٢) قرار مؤتمر لندن حول نشاط الطبقة العمالية ، واعلن عن هزيمة الباكونيتية واكد الكومونى شارل لونغيه في لاهاي انه لو كان لدى الثوار في باريس حزب سياسي عمالي لاستطاعت الكومونة صد الهجوم الموجه اليها ، ولحققت النصر في باريس وبرلين ، وان فشل الكومونة راجع لفقدان هذا التنظيم.

ومن المؤكد ان الكومونة حددت مرحلة حاسمة من مراحل الحركة العمالية الفرنسية والعالمية. اذ بدات الاشتراكية العلمية تاخذ طريقها الى قلب البروليتاريا الفرنسية التي كانت انذاك مشبعة بالطوباوية ، والبرودونية الميالة الى الفوضوية ، وكل اشكال الاصلاحية . ثم تاسس الحزب العمالي الفرنسي بعد الكومونة بعشر سنوات ، فكان حزبا ماركسيا . اسسه جول جيد وبول لافارغ ، وجاء مارسيل كاشان ليجدد تقاليده – وهي تقاليد ايجابية رغم كثير من الاخطاء – ولقد لعبت هذه التقاليد دورا لا ينكر عند بناء الحزب الشيوعي الفرنسي في عام ١٩٢٠ . وهكذا شارك كاميليان ولوجون وغيرهما من الكومونيين القدامى في تاسيس الحزب الشيوعي الفرنسي.

وبالاضافة الى ذلك ، فقد افتتحت الكومونة في خارج فرنسا عصر تنظيم الاحزاب الاشتراكية – الوطنية .

وما ان انتصرت الانتهازية في الاممية الثانية حتى حاولت اسدال الستار على دور الكومونة، وحولت الاحتفال بيوم ١٨ مارس الى احتفال بارد اجوف ، ولكن لينين اعاد الى الاذهان معنى الكومونة وافكار ماركس بهذا الصدد .

ويرى ماركس ولينين ان الكومونة تعبر لا يقبل الجدل عن قدرة الطبقة العمالية على انشاء الدولة . ويمكن اعتبار تنظيم الكومونة تجسيدا ماديا لديكتاتورية البروليتاريا .

وفي عام ١٨٩١ كتب انجلس « لقد اصاب الاشتراكي – الديمقراطي الجبان مؤخرا هلع شديد عند سماع كلمة ديكتاتورية البروليتاريا. حسنا ! هل تريدون ايها السادة معرفة شكل هذه الديكتاتورية ؟ انظروا الى الكومونة باريس، فلقد كانت ديكتاتورية للبروليتاريا » .

مكان الكومونة في التاريخ :

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، اصبح الموقف في الكومونة مقياسا للطبيعة الثورية التي تتحلى بها اية حركة عمالية. تماما كما هو الحال اليوم بالنسبة للموقف الذي تاخذه التنظيمات من لينين ، او ثورة اكتوبر . وهكذا كتب موريس توريز في « ابن الشعب » « لقد استلمت الثورة الروسية العمل البطولي الذي بدأه الرواد المناضلون في عام ١٨٧١ وتابعته واسست فوق سدس الكرة الارضية كومونة ظافرة » .

ومنذ خمسة وعشرين عاما ، عرف العالم اجمع انتشار العلاقات الاجتماعية السامية التي كانت الكومونة من اول المبشرين بها ، وغدت راية الكومونة راية النظام الاشتراكي العالمي. اما فكرة المجتمع الحر العادل الاخوي التي اضاءت معارك العمال الباريسيين وموتهم في عام ١٨٧١ ، فقد اصبحت اليوم حقيقة فوق جزء واسع من الكرة الارضية . وستصبح حقيقة اكيدة في كافة ارجاء المعمورة .

لقد شهدنا نقدم التاريخ العالمي بسرعة مذهلة ، ونقف البورجوازية الامبريالية مدعورة مما يخبئه لها المستقبل ، ومن المؤكد ان الفضية التي يدافع عنها ورثة حكومة فرساي التاريخيين قضية بلا امل وكل تاخير في قلب نظام الاحتكارات في البلاد الخاضعة لسيطرة الرجعية يزيد من الام الشعوب. كما ان تناقض مصالح الجماهير الكادحة ، والشبيبة ، والتقدم الاجتماعي مع مصالح الاوليغارشية ، يبدو واضحا لكل ذي عينين . وتظهر الراسمالية – حتى بالنسبة لمن اصبيوا بقصر النظر – حاجزا امام تنظيم الحياة الاجتماعية بشكل حديث عادل ، وامام تلبية متطلبات الحرية ، والمسؤولية ، والسلم ، والرفاهية ، التي ينادي بها الانسان المعاصر. حقا ، لقد غدت الراسمالية كلمة مخجلة مجللة بالعار .

ويمكن تلخيص تطورات القرن الذي مضى منذ كومونة باريس حتى الان كما يلي : لقد تطورت شعوب الارض حتى غدت اما شعوبا اشتراكية ، او شعوبا يتغلغل فيها يوما بعد يوم ايمان عام بالاشتراكية يمثل في الحقيقة بداية الوعي الاشتراكي الصحيح .